بسط الكف

بالفوائد المنتقاة

من تفاسير السورة الكهف

للعلامة محمد بن صالح العثيمين
رحمه الله

جمع وإعداد
عبدالحكيم بن عبدالله رباع الشحي

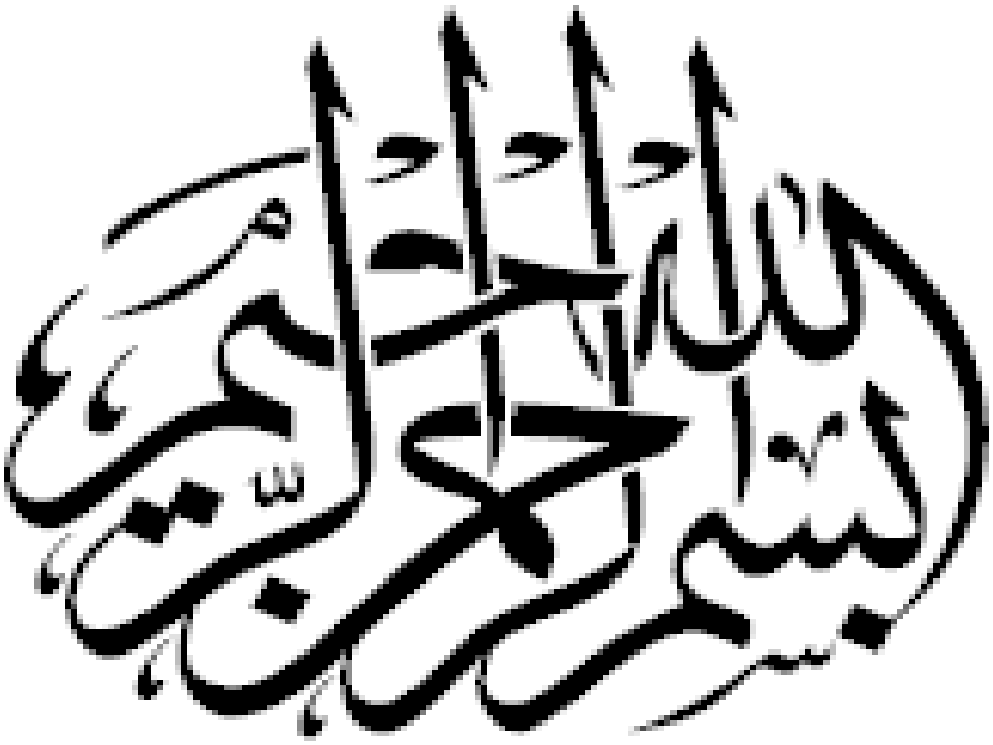

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م

المقـــدمـــة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَا ء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُم ْذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١]، أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد – صلى الله عليه وسلم –، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، أما بعد:

فهذه فوائد مجموعة من درر الإمام محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله – في تفسيره لسورة الكهف، قد كنت قيدتها فانتقيت منها ما رأيته أكثر فائدة، وأعظم أهمية، فرتبتها وهذبتها وقسمتها وذللتها للإخوة القراء وسميتها:

"بسط الكف بالفوائد المنتقاة من تفسير سورة الكهف"

فالله أسأل أن ينفع بها، وأسأله – سبحانه – أن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علماً.

كتبه/ عبدالحكيم بن عبدالله رباع الشحي

١. ما جاء في نزولها

قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله –: سورة الكهف مكيَّة واستثنى بعض المفسرين بعض الآيات: أولها [١ – ٨]، وآية رقم [٢٨]، ومن [١٠٧ – ١١٠] على أنها مدنية، ولكن هذا الاستثناء يحتاج إلى دليل؛ لأن الأصل أن السُّور المكيَّة مكيَّةٌ كلها وأن المدنيَّة مدنيَّةٌ كُلُّها، فإذا رأيت استثناءً فلا بد من دليل.

٢. فوائد عقدية

١. قوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ يفيد أنه لا بدَّ مع الإيمان من العمل الصالح، فلا يكفي الإيمان وحده بل لا بد من عمل صالح؛ ولهذا قيل لبعض السلف: "أليس مِفتاحُ الجنَّة لا إله إلاَّ الله؟" يعني فمن أتى به فُتح له! قال: بلى، ولكن هل يفتحُ المفتاحُ بلا أسنان؟

٢. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله –: اعلم أن من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الجنَّة موجودة الآن وأنها مؤبدة، وأن النار موجودة الآن وأنها مؤبدة، وقد جاء هذا في القرآن، فآيات التأبيد بالنسبة لأصحاب اليمين كثيرة، أما بالنسبة لأصحاب الشمال فقد ذُكر التأبيد في آيات ثلاث:

١) في سورة النساء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩].

٢) في سورة الأحزاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ [الأحزاب: ٦٤- ٦٥].

٣) في سورة الجن، في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ [الجن: ٢٣].

وإذا كانت ثلاثُ آيات من كتاب الله صريحة في التأبيد فلا ينبغي أن يكون هناك خلاف، كما قيل:

وليس كل خلاف جاء معتبراً *** إلاَّ خلافاً له حـظٌّ من النَّـظرِ

وما ذكر من الخلاف في أبدية النار لا حظَّ له، كيف يقول الخالق العليم: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ [النساء: ٥٧] ثم يقال: لا أبدية؟ هذا غريب، من أغرب ما يكون، فانتبهوا للقاعدة في مذهب أهل السنّة والجماعة: أن الجنَّة والنار مخلوقتان الآن؛ لأن الله ذكر في الجنة ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وفي النار ﴿أعدت﴾ [البقرة: ٢٤]. وثانياً: أنهما مؤبدتان لا تفنَيان لا هما ولا من فيهما كما سمعتم.

٣. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله –: جعل تأتي بمعنى: خلق وبمعنى صيَّر، فإن تعدَّت لمفعولٍ واحدٍ فإنها بمعنى "خلق"، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وإن تعدَّت لمفعولين فهي بمعنى صَيَّر، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ [الزخرف: ٣]: أي صيَّرناه بلغة العرب، وإنما نبَّهتُ على ذلك؛ لأن الجهمية يقولون: إنَّ الجعلَ بمعنى الخلق في جميع المواضع، ويقولون: معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾: أي خلقناه، ولكن هذا غلط على اللغة العربية.

٤. قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ مخلصين لله ﷻ يريدون وجهه ولا يريدون شيئاً من الدنيا، يعني أنهم يفعلون ذلك لله وحده لا لأحدٍ سواه. وفي الآية إثبات الوجه لله تعالى، وقد أجمع علماء أهل السنة على ثبوت الوجه لله تعالى بدلالة الكتاب والسنة على ذلك،

قال الله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ والإكرام﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقال النبي ﷺ: (أعوذ بوجهك)، وأجمع سلف الأمة وأئمتُها على ثبوت الوجه لله ﷻ. **ولكن هل يكون هذا الوجه مماثلاً لأوجه المخلوقين؟**

الجواب: لا يمكن أن يكون وجه الله مماثلاً لأوجه المخلوقين لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ [مريم: ٦٥]، أي شبيهاً ونظيراً، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وهكذا كل ما وصف الله به نَفْسَهُ فالواجب علينا أن نجريه على ظاهره، ولكن بدون تمثيل، فإن قال قائل: إذا أثبتّ لله وجهاً لزم من ذلك التمثيل، ونحمل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، يعني إلاَّ في ما أثبته كالوجه واليدين؟

فالجواب: أن هذا مكابرة؛ لأننا نعلم حساً وعقلاً أن كل مضاف إلى شيء فإنه يناسب ذلك الشيء، أليس للإنسان وجه، وللجَمَلِ وجه، وللحصان وجه وللفيل وجه؟ بلى، وهل هذه الأوجه متماثلة؟ لا؛ أبداً! بل تناسب ما أضيفت إليه، بل إن الوقت والزمن له وجه، كما في قوله تعالى: ﴿آمَنُوا بالذي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ [آل عمران: ٧٢]، فأثبت أن للزمن وجهاً، فهل يمكن لأحد أن يقول: إن وجه النهار مثل وجه الإنسان؟

الجواب: لا يمكن، إذاً ما أضافه الله لنفسه من الوجه لا يمكن يكون مماثلاً لأوجه المخلوقين؛ لأن كل صفة تناسب الموصوف، فإن قال قائل: إنه قد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: (إنَّ الله تعالى خلق آدم على صورته)، فما الجواب؟

فالجواب: من أحد وجهين:

الوجه الأول: إما أن يقال: لا يلزم من كونه على صورته أن يكون مماثلاً له، والدليل أن النبي ﷺ أخبر بأن أوَّل زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ونحن نعلم أنه ليس هناك مماثلة بين هؤلاء والقمر، لكن على صورة القمر من حيث العموم إضاءةً وابتهاجاً ونوراً.

الوجه الثاني: أن يقال: "على صورته" أي على الصورة التي اختارها الله ﷻ، فإضافة صورة الآدمي إلى الله على سبيل التشريف والتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُه﴾ [البقرة: ١١٤]، ومن المعلوم أن الله ليس يصلي في المساجد، لكن أضيفت إلى الله على سبيل التشريف والتعظيم، وعلى أنها إنما بنيت لطاعة الله، وكقول صالح عليه السلام لقومه: ﴿ناقة الله وسقياها﴾ [الشمس: ١٣]، ومن المعلوم أن هذه الناقة ليست لله كما تكون للآدمي يركبها؛ لكن أضيفت إلى الله على سبيل التشريف والتعظيم، فيكون "خلق آدم على صورته" أو "على صورة الرحمن"، يعني على الصورة التي اختارها من بين سائر المخلوقات، قال الله تعالى في سورة الانفطار: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٧]، أي الذي جعلك جعلا كهذا وهذا يشمل اعتدال القامة واعتدال الخلقة،

ففهمنا الآن والحمد لله أن الله تعالى له وجه حقيقي، وأنه لا يشبه أوجه المخلوقين. وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ إشارة للإخلاص، فعليك أخي المسلم بالإخلاص حتى تنتفع بالعمل.

٥. وهذه الآية ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ من الصفات المنفية عن الله، وأكثر الوارد في الصفات الصفات المثبتة كالحياة والعلم والقدرة، وأما ذكر الصفات المنفية فقليل بالنسبة للصفات المثبتة، ولا يتم الإيمان بالصفات المنفية إلاَّ بأمرين:

الأول: نفي الصفة المنفية.

والثاني: إثبات كمال ضدها.

فالنفي الذي لم يتضمن كمالاً لا يمكن أن يكون في صفات الله، بل لا بد في كل نفي نفاه الله عن نفسه أن يكون متضمناً لإثبات كمال الضد، والنفي إن لم يتضمن كمالاً فقد يكون لعدم قابليته، أي قابلية الموصوف له، وإذا لم يتضمن كمالاً فقد يكون لعجز الموصوف، وإذا كان نفياً محضاً فهو عدمٌ لا كمال فيه، والله تعالى له الصفات الكاملة كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] أي الوصف الأكمل.

قلنا إذا لم يتضمن النفي كمالاً فقد يكون لعدم قابليته، كيف ذلك؟ ألسنا نقول إن الجدار لا يظلِم؟ بلى، هل هذا كمال للجدار؟ لا، لماذا؟ لأن الجدار لا يقبل أن يوصف بالظلم، ولا يوصف بالعدل، فليس نفي الظلم عن الجدار كمالاً، وقد يكون النفي إذا لم يتضمن كمالاً نقصاً لعجز الموصوف به عنه، لو أنك وصفت شخصاً بأنه لا يظلم

بكونه لا يجازي السيئة بمثلها؛ لأنه رجل ضعيف لا يقدر على الانتصار لنفسه لم يكن هذا مدحاً له.

فالخلاصة: أن كل وصفٍ وصف الله به نفسه وهو نفي، فإنه يجب أن نعتقد مع انتفائه ثبوتَ كمال ضده، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٣٣]، فعلى هذه القاعدة نفى الله "العي" وهو العجز؛ لثبوت كمال ضد العجز وهو القدرة، إذاً نؤمن أن الله ﷻ له قدرة لا يلحقها عجز، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [قّ: ٣٨]، أي من تعب وإعياء وذلك لكمال قدرته جلَّ وعلا.

٦. ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾... وفي هذا نص صريح على إثبات كلام الله ﷻ، وكلمات الله ﷻ كونية، وشرعية، أما الشرعية فهو ما أوحاه إلى رسله، وأما الكونية فهي ما قضى به قَدَرهُ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يّس: ٨٢]، وكل شيء بإرادته، إذاً فهو يقول لكل شيء ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، ومن الكلمات الشرعية ما أوحاه ﷻ إلى من دون الرسل، كالكلمات التي أوحاها إلى آدم، فإن آدم عليه السلام نبي وليس برسول، وقد أمره الله ونهاه، والأمر والنهي كلمات شرعية.

٧. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠]:

قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾: يعني أعلن للملأ أنك لست ملكاً، وأنك من جنس البشر ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، وذِكر المثلية لتحقيق البشرية، أي: أنه بشر لا يتعدى البشرية، ولذلك كان ﷺ يغضب كما يغضب الناس، وكان ﷺ يمرض كما يمرض الناس، وكان يجوع كما يجوع الناس، وكان يعطش كما يعطش الناس، وكان يتوقى الحر كما يتوقاها الناس، وكان يتوقى سهام القتال كما يتوقاها الناس، وكان ينسى كما ينسى الناس، كل الطبيعة البشرية ثابتة للرسول ﷺ وكان له ظِلٌ كما يكون للناس.

أمّا من زعم أن الرسول ﷺ نُورَاني، ليس له ظل فهذا كذب بلا شك، فإن الرسول ﷺ كغيره من البشر له ظل ويستظل أيضاً، ولو كان الرسول ﷺ ليس له ظل، لنقل هذا نقلاً متواتراً؛ لأنه من آيات الله ﷻ، إذاً الرسول ﷺ بشر مثل الناس، وهل يقدر الرسول ﷺ أن يجلب للناس نفعاً أو ضراً؟

الجواب: لا، كما أمره الله ﷻ أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً﴾ [الجن: ٢١].

ومن العجب أن أقواماً لا يزالون موجودين، يتعلقون بالرسول ﷺ أكثر مما يتعلقون بالله ﷻ، إذا ذكر الرسول ﷺ اقشعرت جلودهم، وإذا ذكر الله كأن لم يُذكر! حتى إن بعضهم يؤثر أن يحلف بالرسول ﷺ دون أن يحلف بالله ﷻ، وحتى إن بعضهم يرى أن زيارة قبر الرسول ﷺ أفضل من زيارة الكعبة.

ولقد شاهدت أناساً حُجزوا عن المدينة في أيام الحج لقرب وقت الحج؛ لأنه إذا قرب وقت الحج منعوهم من الذهاب إلى المدينة، لئلَّا يفوتهم الحج، يبكي! يقول: أنا منعت من الأنوار، ومنعت من كذا وكذا ويعدد ما نسيته الآن، فيقال له: أنت لماذا جئت؟ قال: جئت لمشاهدة الأنوار كأنه ما جاء إلا لزيارة المدينة، ونسي أنه جاء ليؤدي فريضة الحج، وسبب ذلك الجهل؛ وأن العلماء لا يبينون للعامة، وإلاّ فالعامي عنده عاطفة جياشة لو أنه أخبر بالحق لرجع إليه.

٣. فوائد فقهية

١. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله –: في بعض العبادات الأفضل التخفيف كركعتي الفجر مثلاً، لو قال إنسان: أنا أحب أن أطيل فيها في قراءة القرآن وفي الركوع والسجود والقيام، وآخر قال: أنا أريد أن أخفف، فالثاني أفضل؛ ولهذا ينبغي لنا إذا رأينا عامِّيًّاً يطيل في ركعتي الفجر أن نسأله: هل هاتان الركعتان ركعتا الفجر أو تحية المسجد؟ فإن كانت تحية المسجد فشأنه، وإن كانت ركعتي الفجر قلنا: لا، الأفضل أن تخفف.

وفي الصيام رخَّص ﷺ لأمته أن يواصلوا إلى السَّحَر، وندبهم إلى أن يفطروا من حين غروب الشمس، فصام رجلان أحدهما امتد صومه إلى السحور والثاني أفطر من حين غابت الشمس، فأيهما أفضل؟ الثاني أفضل بلا شك، والأول وإن كان لا ينهى عنه فإنه جائز ولكنه غير مشروع، فانتبه لهذا.

٢. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُم﴾ فيه دليل على أن فعل النائم لا ينسب إليه، ووجه الدلالة أن الله أضاف تقلبهم إليه، فلو أنّ النائم قال في نومه: "امرأتي طالق" أو "في ذمتي لفلان ألف ريال" لم يثبت؛ لأنه لا قصد له ولا إرادة له؛ لا في القول؛ ولا في الفعل.

والحكمة من تقليبهم ذات اليمين وذات الشمال: بعض العلماء قال: لئلاَّ تأكل الأرض الجانب الذي يكون ملاصقاً لها، ولكن الصحيح أن الحكمة ليست هذه، الحكمة من

أجل توازن الدم في الجسد؛ لأن الدم يسير في الجسد، فإذا كان في جانب واحد أوشك أن ينحَرِم منه الجانب الأعلى، ولكن الله بحكمته جعلهم يتقلبون.

٣. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ وهو فتحة الكهف أو فِناء الكهف يعني: إما أن يكون على الفتحة، وإما أن يكون إلى جنب الكهف في فِنائه ليحرسهم، وفي هذا دليل على جواز اتخاذ الكلب للحراسة، حراسة الآدميين، أما حراسة الماشية فقد جاءت به السنّة، وحراسة الحرث جاءت به السنة كذلك، حراسة الآدمي من باب أولى؛ لأنه إذا جاز اتخاذ الكلب لحراسة الماشية والحرث أو للصيد الذي هو كمال فاتخاذه لحراسة البيت من باب أولى.

٤. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ تضمن هذا:

أولاً: جواز التوكيل في الشراء، والتوكيل في الشراء جائز، وفي البيع جائز أيضاً، فإن الرسول ﷺ وكَّل أحد أصحابه أن يشتري له أضحية وأعطاه ديناراً، وقال: اشتر أضحية، فاشترى شاتين بالدينار ثم باع إحداهما بدينار فرجع بشاة ودينار، فدعا له النبي ﷺ أن يبارك الله له في بيعه، فكان لو اشترى تراباً لربح فيه.

وقد أخذ العلماء من هذا الحديث أنه يجوز تصرف الفضولي، أي يجوز للإنسان أن يتصرف بمال غيره إذا علم أن غيره يرضى بذلك، فهؤلاء وكلوا أحدهم أن يذهب إلى المدينة ويأتي برزق.

ثانياً: في هذا أيضاً دليل أنه لا بأس على الإنسان أن يطلب أطيب الطعام لقولهم: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾.

ثالثاً: فيه دليل أيضاً على ضعف قول الفقهاء: إنه لا يصح الوصف بالأفعل، أي لا يجوز أن أصف المبيع بأنه أطيب كل شيء، فلا تقول: "أبيع عليك برّاً أفضل ما يكون"؛ لأنه ما من طَيِّب إلاَّ وفوقه أطيب منه، ولكن يقال: هذا يرجع إلى العرف، فأطيب: يعني في ذلك الوقت وفي ذلك المكان، وهل من السنّة ما يشهد لطلب الأزكى من الطعام؟ نعم، وذلك أن النبي ﷺ أقرَّ الصحابة الذين باعوا التمر الرديء بتمر جيد ليطعم النبي ﷺ منه، ولم ينههم عن هذا، وما قال: هذا تَرَفُّه، اتركوا طلب الأطيب، فالإنسان قد فتح الله له في أن يختار الأطيب من الطعام أو الشراب أو المساكن أو الثياب أو المراكب، ما دام الله قد أعطاه القدرة على ذلك فلا يُلام.

٥. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ وهم أمراؤهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ بدل من أن نبني بنياناً نحوطهم به ونسترهم به ولا يكون لهم أثر أي لنجعلن عليهم مسجداً نتخذه مصلى، والظاهر أنهم فعلوا؛ لأن القائل هم الأمراء الذين لهم الغلبة.

هذا الفعل، اتخاذ المساجد على القبور، من وسائل الشرك وقد جاءت شريعتنا بمحاربته حتى أن النبي ﷺ قال وهو في سياق الموت: (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يُحذِّر ما صنعوا).

٦. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾: أي ولا تستفت في أهل الكهف ﴿وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ أي من الناس سواءٌ من أهل الكتاب أم من غيرهم أحداً عن حالهم وزمانهم ومكانهم، وفيه إشارة إلى أن الإنسان لا ينبغي أن يستفتي من ليس أهلاً للإفتاء، حتى وإن زعم أن عنده علماً فلا تَسْتَفْتِهِ إذا لم يكن أهلاً.

٧. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله –: فالمشيئة إذا نسيها الإنسان فإنه يقولها إذا ذكرها، ولكن هل تنفعه، بمعنى أنه لو حنِث في يمينه فهل تسقط عنه الكفارة إذا كان قالها متأخراً؟

من العلماء من قال: إنها تنفعه حتى لو لم يذكر الله إلاَّ بعد يوم أو يومين أو سنة أو سنتين، لأن الله أطلق: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، ومن العلماء من قال: لا تنفعه إلاَّ إذا ذكر في زمن قريب بحيث ينبني الاستثناء على المستثنى منه، وهذا الذي عليه جمهور العلماء، فمثلاً إذا قلت: والله لأفعلنّ هذا ونسيت أن تقول: إن شاء الله، ثم ذكرت بعد عشرة أيام فقلت: إن شاء الله، ثم لم تفعل بناء على أن من قال: إن شاء الله لم يحنَث، فمن العلماء من قال: ينفعه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، ومنهم من قال: لا ينفعه؛ لأن الكلام لم ينبنِ بعضه على بعض، إذاً ما الفائدة من أمر الله أن نذكره إذا نسينا؟ قال: الفائدة هو ارتفاع الإثم، لأن الله قال: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإذا نسيت، فقلها إذا ذكرت، لكن هل تنفعك فلا تحنث أم يرتفع عنك الإثم دون حكم اليمين؟

الظاهر: **الثاني**؛ أن يرتفع الإثم، وأما الحنْث فإنه يحنَث لو خالف؛ لأن الاستثناء بالنسبة للحِنْث لا ينبغي إلاَّ أن يكون متصلاً، ثم الاتصال هل يقال: إن الاتصال معناه أن يكون الكلام متواصلاً بعضه مع بعض أو أن الاتصال ما دام بالمجلس؟

الجواب: فيه خلاف، بعضهم يقول: ما دام في المجلس فهو متصل، وإذا قام عن المجلس فقد انقطع، قالوا: لأن النبي ﷺ قال: (البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا) فجعل التفرق فاصلاً، ومنهم من قال: العبرة باتصال الكلام بعضه مع بعض، والظاهر والله أعلم أنه إذا كان في مجلسه، ولم يذكر كلاماً يقطع ما بين الكلاميْن، فإنه ينفعه الاستثناء؛ فلا يحنث.

٨. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ فأردت أن أعيبها حتى إذا مرت بهذا الملك، قال: هذه سفينة معيبة لا حاجة لي فيها؛ لأنه لا يأخذ إلا السفن الصالحة الجيدة، أما هذه فلا حاجة له فيها، فصار فعل الخضر من باب دفع أشد الضررين بأخفهما.

ومنه يؤخذ فائدة عظيمة: وهي إتلاف بعض الشيء لإصلاح باقيه، والأطباء يعملون به، تجده يأخذ من الفخذ قطعة فيصلح بها عيباً في الوجه، أو في الرأس، أو ما شابه ذلك، وأخذ منه العلماء – رحمهم الله – أن الوقف إذا دَمَر وخرب فلا بأس أن يباع بعضه، ويصرف ثمنه في إصلاح باقيه.

٩. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله –: هل يحبط العمل بمجرد الردة أم لا بد من شرط؟

الجواب: لا بد من شرط، وهو أن يموت على ردته، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أما لو ارتد، ثم مَنَّ الله عليه بالرجوع إلى الإسلام، فإنه يعود عليه عمله الصالح السابق للردة.

٤. مسائل واختيارات مهمة

١. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله –: يجب الوقوف على قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا﴾؛ لأنك لو وصلت لصار في الكلام تناقضٌ، إذ يوهمُ أن المعنى لم يكن له عوج قَيِّم.

٢. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله –: الضمير في قوله: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ يحتملُ أن يكون عائداً على ﴿عبده﴾ ويحتملُ أن يكون عائداً على ﴿ الْكِتَابَ﴾ وكلاهما صحيح، فالكتاب نَزل على الرسول ﷺ لأجل أن يُنذِر به، والكتاب نفسُه مُنذِر، ينذر الناس.

٣. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿بعثناهم لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُم﴾ ليس المعنى أنهم بعثوا للتساؤل ولكن بعثوا فتساءلوا، فاللام جاءت للعاقبة لا للتعليل، كما في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ [القصص: ٨]، اللام ليست للتعليل أبداً، ولا يمكن أن تكون للتعليل؛ لأن آل فرعون لم يلتقطوه ليكون لهم عدواً وحزناً، ولكنهم التقطوه فكان لهم عدواً وحزناً.

٤. قال الله تعالى: ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ قاله في الذين قالوا: ﴿ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ و﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، كلا القولين قال الله تعالى إنهم قالوه: ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ أي راجمين بالغيب، وليس عندهم يقين.

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولم يقل: رجماً بالغيب، بل سكت سبحانه وتعالى، وهذا يدل على أن عددهم سبعة وثامنهم كلبهم؛ لأن الله عندما أبطل القولين الأولين، وسكت عن الثالث صار الثالث صواباً، نظيره قول الله تبارك وتعالى في المشركين إذا فعلوا فاحشة: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ هذا واحد، ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ هذا اثنان، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، فأبطل قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ وسكت عن الأول؛ فدل على أن الأول: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ صحيح، وهنا لما قال: ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ في القولين الأولين، وسكت عن الثالث دل على أنهم سبعة وثامنهم كلبهم.

﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَم بِعِدَّتِهِمْ﴾ يعني إذا حصل نزاع فقل للناس: ﴿رَبِّي أَعْلَم بِعِدَّتِهِمْ﴾، وهل أعلمنا الله بعدتهم؟

الجواب: نعم؛ أعلمنا بأنهم سبعة وثامنهم كلبهم، يعني فإذا كان الله أعلم بعدتهم فالواجب أن نرجع إلى ما أعلمنا الله به، ونقول جازمين بأن عدتهم سبعة وثامنهم كلبهم.

٥. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ ازدادوا على الثلاث مائة تسع سنين، فكان مكثُهم ثلاث مائة وتسع سنين.

٦. اختار الشيخ – رحمه الله – أن قصة الرجلين مثل حقيقي فقال:

إنَّ هذا المثل الذي ضربه الله في هذه الآيات هل هو مثل حقيقي أو تقديري؟ يعني هل هذا الشيء واقع أو أنه شيء مُقدَّر؟

الجواب: من العلماء من قال إنه مثل تقديري، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦]، وكقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]، وما شابه ذلك، فيكون هذا مثلاً تقديرياً وليس واقعياً، ولكن السياق وما فيه من المحاورة والأخذ والرد يدل على أنه مثل حقيقي واقع، فهما رجلان أحدهما أنعم الله عليه، والثاني لم يكن مثله.

٧. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾، ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿ويلتنا﴾ وهي الهلاك ولكن كيف تنادى؟

الجواب: إما أن "يا" للتنبيه فقط؛ لأن النداء يتضمن الدعاء والتنبيه، وإما أن نقول إنهم جعلوا ويلتهم بمنْزلة العاقل الذي يوجه إليه النداء، ويكون التقدير "يا ويلتنا احضري"! لكن المعنى الأول أقرب؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير؛ ولأنه أبلغ.

٨. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾، قوله: ﴿وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: من ولدوا منه، سُئل بعض السلف – سأله ناس من المتعمقين – فقالوا هل للشيطان زوجة؟ قال إني لم أحضر العقد، وهذا السؤال لا داعي له، نحن نؤمن بأن له ذرية أما من زوجة أو من غير

زوجة ما ندري، أليس الله قد خلق حواء من آدم؟ بلى، فيجوز أن الله خلق ذرية إبليس منه كما خلق حواء من آدم.

وهذه المسائل – مسائل الغيب – لا ينبغي للإنسان أن يورد عليها شيئاً يزيد على ما جاء في النص؛ لأن هذه الأمور فوق مستوانا، نحن نؤمن بأن لإبليس ذرية ولكن هل يلزمنا أن نؤمن بأن له زوجة؟ **الجواب**: لا يلزمنا.

٩. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿مِنْ سَفَرِنَا هَذَا﴾ ليس المراد من حين ابتداء السفر، ولكن من حين ما فارقا الصخرة، ولذلك طلب الغداء، قال أهل العلم: وهذا من آيات الله فقد سارا قبل ذلك مسافة طويلة ولم يتعبا، ولما جاوزا المكان الذي فيه الخضر، تعبا سريعاً من أجل ألا يتماديا في البعد عن المكان.

١٠. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا﴾ هل هو عبدٌ من عباد الله الصالحين؟ أو من الأولياء الذين لهم كرامات؟ أم من الأنبياء الموحى إليهم؟ كل ذلك ممكن، لكن النصوص تدل على أنه ليس برسول ولا نبي، إنما هو عبد صالح أعطاه الله تعالى كرامات؛ ليبين الله بذلك أن موسى لا يحيط بكل شيء علماً، وأنه يفوته من العلم شيء كثير.

١١. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾، يعني علماً لا يطَّلِع عليه الناس، وهو علم الغيب في هذه القصة المعينة وليس علم نبوة، ولكنه علم خاص؛ لأن هذا العلم الذي اطَّلع عليه الخضر لا يمكن إدراكه وليس شيئاً

مبنياً على المحسوس، فيبنى المستقبل على الحاضر، بل شيء من الغائب، فأطلعه الله تعالى على معلومات لا يطَّلع عليها البشر.

١٢. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ الفاعل موسى والخضر، وسكت عن الفتى، فهل الفتى تأخر عن الركوب في السفينة؟ أم أنه ركب ولكن لما كان تابعاً لم يكن له ذكر؟

الجواب: الذي يظهر – والله أعلم – أنه كان تابعاً، لكن لم يكن له تعلق بالمسألة، والأصل هو موسى طوي ذكره، وهو أيضاً تابع.

١٣. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يعني أنه لم يقتل أحداً حتى تقتله، ولكن لو أنه قتل هل يُقتل أو لا؟

الجواب: في شريعتنا لا يقتل؛ لأنه غير مُكلَّف ولا عَمْد له، على أنه يحتمل أن يكون هذا الغلام بالغاً، وسمي بالغلام لقرب بلوغه وحينئذٍ يزول الإشكال.

١٤. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ أي: أنه مائل يريد أن يسقط، فإن قيل: هل للجدار إرادة؟

فالجواب: نعم له إرادة، فإن ميله يدل على إرادة السقوط، ولا تتعجب إن كان للجماد إرادة فها هو "أُحُد" قال عنه النبي ﷺ إنه: (يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ)، والمحبة وصف زائد على الإرادة، أما قول بعض الناس الذين يجيزون المجاز في القرآن: إنَّ هذا كناية، وأنه ليس للجماد إرادة فلا وجه له.

١٥. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ أي: صاحب القرنين، وكان له ذكر في التاريخ، وقد قال اليهود لقريش: اسألوا محمداً عن هذا الرجل؛ فإن أخبركم عنه فهو نبي، ولماذا سمي بذي القرنين؟

قيل: معناه ذي الملك الواسع من المشرق والمغرب، فإن المشرق قرن والمغرب قرن، كما قال النبي ﷺ عن المشرق: (حيث يطلع قرن الشيطان)، فيكون هذا كناية عن سعة ملكه، وقيل: ذي القرنين لقوته، ولذلك يعرف أن الفحل من الضأن الذي له قرون يكون أشد وأقوى، وقيل: لأنه كان على رأسه قرنان كتاج الملوك، والحقيقة أن القرآن العظيم لم يبين سبب تسميته بذي القرنين، لكن أقرب ما يكون للقرآن العظيم: "المالك للمشرق والمغرب"، وهو مناسب تماماً؛ حيث قال النبي ﷺ عن الشمس إنها: (تطلع بين قرني شيطان).

١٦. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ أي شيئاً يتوصل به إلى مقصوده، وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يعم كل شيء؛ لكن المراد من كل شيء يحتاج إليه في قوة السلطان، والتمكين في الأرض، والدليل على هذا أن "كل شيء" بحسب ما تضاف إليه، فإن الهدهد قال لسليمان عليه السلام عن ملكة اليمن سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، ومعلوم أنها لم تؤت ملك السموات والأرض، لكن من كل شيء يكون به تمام الملك، كذلك قال الله تعالى عن ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ومعلوم أنها ما دَمَّرت كل شيء،

فالمساكن ما دُمِّرت كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الاحقاف: ٢٥].

١٧. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ وذلك بالشرك؛ لأن الظلم يطلق على الشرك وعلى غيره، لكن الظاهر، والله أعلم، هنا أن المراد به الشرك؛ لأنه قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾.

١٨. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ المفسرون الذين رأيت كلامهم يقولون: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني إذا خرجوا صار "يموج بعضهم في بعض"، ثم اختلفوا في معنى "يموج بعضهم في بعض" هل معناه أنهم يموجون مع الناس، أو يموج بعضهم في بعض يتدافعون عند الخروج من السد؟ وإذا كان أحد من العلماء يقول: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يعني بعد السد، صاروا هم بأنفسهم يموج بعضهم في بعض، فإن كان أحدٌ يقول بهذا، فهو أقرب إلى سياق الآية، لكن الذي رأيته أنهم يموج بعضهم في بعض يعني إذا خرجوا، ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومئذْ يريد الله ﷻ خروجهم.

٥. التعريفات

١. **الْحَمْدُ**: هو وصفُ المحمود بالكمال محبة وتعظيماً، وبقولنا محبةً وتعظيماً خرج المدح؛ لأن المدح لا يستلزم المحبة والتعظيم، بل قد يَمدح الإنسان شخصاً لا يساوي فلساً ولكن لرجاء منفعة أو دفع مضرة، أما الحمد فإنه وصف بالكمال مع المحبة والتعظيم.

٢. **الكذب**: هو الخبر المخالف للواقع.

٣. **الصدق**: هو الخبر المطابق للواقع.

٤. **الرَّب**: هو اسم من أسماء الله معناه الخالق المالك المدبر.

٦. الفوائد الجامعة

١. المكّي ما نزل قبل الهجرة، والمدنِيُّ ما نزَل بعد الهجرة حتى وإن نزل بغير المدينة مثل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣] فقد نزلت بعرفة عام حجة الوداع.

٢. ﴿عَبْدِهِ﴾ يعني محمداً ﷺ وَصَفَهُ تعالى بالعبودية؛ لأنه أعبَدُ البَشَر لله ﷻ وقد وصَفَه تعالى بالعبودية في حالات ثلاث:

١) حالِ إنزال القرآن عليه كما في هذه الآية.

٢) في حالِ الدفاعِ عنهُ ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

٣) وفي حالِ الإسراءِ به، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الاسراء: ١].

يعني في أشرف مقاماتِ النبي ﷺ وَصفهُ الله بأنه عبدٌ، ونِعمَ الوصفُ أن يكون الإنسانُ عبداً لله.

٣. ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، سُمِّي كتاباً؛ لأنه يُكتب، أو لأنهُ جامع؛ لأن الكَتْب بمعنى الجَمْع، ولهذا يقالُ: الكتيبةُ يعني المجموعةُ من الخيل، والقرآن صالح لهذا، وهذا فهو مكتوبٌ وهو أيضاً جامع.

٤. ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ التبشير: الإخبار بما يسر، وهنا نجد أنه حُذِف المفعول في قوله: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ وذكر المفعول في قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ﴾، فكيف نقدر المفعول بـ"ينذر"؟

الجواب: نُقدِّرُه في مقابل من يُبَشَّر وهم المؤمنون فيكون تقديره "الكافرين"، وهذه فائدة من فوائد علم التفسير: أنّ الشيء يعرَف بذكر قبيله المقابل له، ومنه قوله تعالى: ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾[النساء: ٧١]. ﴿ثُبَاتٍ﴾: يعني "متفرقين" والدليل ذكر المقابل له ﴿أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾.

٥. ﴿الذين يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ يعني يعملون الأعمال الصالحات، ومتى يكون العمل صالحاً؟

الجواب: لا يمكن أن يكون صالحاً إلاَّ إذا تضمن شيئين:

١) **الإخلاص لله تعالى**: بألاَّ يقصد الإنسان في عمله سوى وجه الله والدار الآخرة.

٢) **المتابعة لشريعة الله**: ألاّ يخرج عن شريعة الله ﷻ سواء شريعة محمد ﷺ أو غيره.

٦. البدعة لا تقبل مهما ازدانت في قلب صاحبها، ومهما كان فيها من الخشوع، ومهما كان فيها من ترقيق القلب؛ لأنها ليست موافقة للشريعة.

ولهذا نقول: كُل بدعة مهما استحسنها مبتدعها فإنها غير مقبولة، بل هي ضلالة كما قاله النبي ﷺ، فمن عمل عملاً على وفق الشريعة ظاهراً لكن القلب فيه رياء؛ فإنه لا يقبل لفقد الإخلاص، ومن عمل عملاً خالصاً على غير وفق الشريعة فإنه لا يقبل، إذاً لا بد من أمرين: إخلاصٍ لله ﷻ، واتباعٍ لرسول الله ﷺ وإلاَّ لم يكن صالحاً.

٧. سمى الله ﷻ ثواب الأعمال أجراً؛ لأنها في مقابلة العمل، وهذا من عدله جلَّ وعلا أن يسمي الثواب الذي يثيب به الطائعَ أجراً حتى يطمئن الإنسان لضمان هذا الثواب؛ لأنه معروف أن الأجير إذا قام بعمله فإنه يستحق الأجر.

٨. قوله: ﴿حَسَناً﴾ جاء في آية أخرى ما هو أعلى من هذا الوصف وهو قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وجاء في آية أخرى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فهل نأخذ بما يقتضي التساوي أو بما يقتضي الأكمل؟

الجواب: بما يقتضي الأكمل، فنقول: ﴿حَسَناً﴾ أي هو أحسن شيء ولا شك في هذا، فإن ثواب الجنة لا يعادله ثواب.

٩. العزير ليس بنبي ولكنه رجل صالح.

١٠. إذا انتفى العلم ما بقي إلاَّ الجهل.

١١. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ قد يُشكل على طالب العلم نَصْبُ ﴿كَلِمَةً﴾

والجواب: ﴿كَلِمَةً﴾ تمييز والفاعل محذوف والتقدير "كبرت مقالتهم كلمةً" تخرج من أفواههم: أي عَظُمت؛ لأنها عظيمة والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ ولداً * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم: ٩٠-٩٣]، يعني: مستحيل غاية الاستحالة أن يكون له ولد.

١٢. من علامات "إن" النافية أن يقع بعدها "إلاَّ" ﴿إن أنت إلا نذير﴾ [فاطر: ٢٣]، ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

١٣. العلماء وظيفتهم البلاغ، وأما الهداية فبيد الله.

١٤. من المعلوم أن الإنسان المؤمن يحزن إذا لم يستجبِ الناس للحق، لكنَّ الحازنَ إذا لم يقبل الناس الحق على نوعين:

١) نوع يحزن؛ لأنه لم يُقبل.

٢) ونوع يحزن؛ لأن الحق لم يُقبل.

والثاني هو الممدوح؛ لأن الأول إذا دعا فإنما يدعو لنفسه، والثاني إذا دعا فإنما يدعو إلى الله ﷻ، ولهذا قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥].

لكن إذا قال الإنسان أنا أحزن؛ لأنه لم يُقبل قولي؛ لأنه الحق ولذلك لو تبين لي الحق على خلاف قولي أخذت به فهل يكون محموداً أو يكونُ غير محمود؟

الجواب: يكون محموداً، لكنه ليس كالآخرِ الذي ليس له همٌّ إلاَّ قَبول الحق سَواء جاء من قِبَله أو جاء من قبل غيره.

١٥. إذا تأملت القرآن تجد أنه غالباً يقدم الشرع على الخلق، قال الله تعالى: ﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان﴾[الرحمن: ١-٣]، وتأمل الآيات في هذا المعنى تجد أن الله يبدأ بالشرائع قبل ذكر الخلق وما يتعلق به؛ لأن المخلوقات إنما سُخِّرت للقيام بطاعة الله ﷻ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات: ٥٦]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: ٢٩]، إذاً المهم القيام بطاعة الله ﷻ، وتأمل هذه النكتة حتى يتبين لك أن أصل الدنيا وإيجاد الدنيا، إنما هو للقيام بشريعة الله ﷻ.

١٦. جعل تأتي بمعنى: خلق وبمعنى صيَّر، فإن تعدَّت لمفعولٍ واحدٍ فإنها بمعنى "خلق"، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وإن تعدَّت لمفعولين فهي بمعنى صَيَّر، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، أي صيَّرناه بلغة العرب.

١٧. الناس ينقسمون إلى قسمين: منهم من يتعلق بالزينة، ومنهم من يتعلق بالخالق، واسمع إلى قوله تعالى مبيناً هذا الأمر.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ

عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]

١٨. تأمل قوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ولم يقل: "أكثر عملاً"؛ لأن العبرة بالأحسن لا بالأكثر، وعلى هذا لو صلى الإنسان أربع ركعات لكنْ على يقين ضعيف أو على إخلال باتباع الشرع، وصلى آخر ركعتين بيقين قوي ومتابعةٍ قوية فأيهما أحسن؟ الثاني؛ بلا شك أحسن وأفضل، لأن العبرة بإحسان العمل وإتقانه إخلاصاً ومتابعة.

١٩. النبي ﷺ يفعل من العبادات ما كان أحسن: يحث على اتباع الجنائز، وتمر به الجنائز ولا يتبعها، يحث على أن نصوم يوماً، ونُفطِر يوماً، ومع ذلك هو لا يفعل هذا، بل كان أحياناً يطيل الصوم حتى يقال: لا يفطر، وبالعكس يفطر حتى يقال: لا يصوم، كل هذا يتبع ما كان أرضى لله ﷻ وأصلح لقلبه.

٢٠. هذه الأرض يا أخي لا يَتعلَّق قلبك بها فهي زائلة، هي ستصير كأن لم تكن كما قال: ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

٢١. قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ "أم" هنا منقطعة، فهي بمعنى "بل"، و﴿حَسِبْتَ﴾ بمعنى ظننتَ، هنا أتى بـ"أم" المنقطعة التي تتضمن الاستفهام من أجل شد النَّفس إلى الاستماع إلى القصة؛ لأنها حقيقة عَجب، هذه القصة عجب.

٢٢. ﴿الرَّقِيمِ﴾ بمعنى المرقوم: أي المكتوب؛ لأنه كتب في حجر على هذا الكهف قصتُهم من أولها إلى آخرها.

٢٣. والنوم نوعان:

١) **خفيف**: وهذا لا يمنع السماع، ولهذا إذا نمت فأول ما يأتيك النوم تسمع مَن حولك.

٢) **عميق**: إذا نمت النوم العميق لا تسمع مَن حولك.

٢٤. سمى الله الاستيقاظ من النوم بعثاً؛ لأن النوم وفاةٌ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

٢٥. وقوله: ﴿بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ﴾، قد يقع فيه إشكال؟ هو: هل الله ﷻ لا يعلم قبل ذلك؟ **الجواب**: لا، واعلم أن هذه العبارة يراد بها شيئان:

١) علم رؤية وظهور ومشاهدة، أي لنرى، ومعلوم أن علم ما سيكون ليس كعلم ما كان؛ لأن علم الله ﷻ بالشيء قبل وقوعه علمٌ بأنه سيقع، ولكن بعد وقوعه علمٌ بأنه وقع.

٢) أن العلم الذي يترتب عليه الجزاء هو المراد، أي لنعلم علماً يترتب عليه الجزاء، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾[محمد: ٣١].

قبل أن يبتلينا قد علم من هو المطيع ومن هو العاصي، ولكن هذا لا يترتب عليه لا الجزاء ولا الثواب، فصار المعنى لنعلم علم ظهور ومشاهدة، وليس علم الظهور والمشاهدة كعلم ما سيكون، والثاني علماً يترتب عليه الجزاء.

أما تحقق وقوع المعلوم بالنسبة لله فلا فرق بين ما علم أنه يقع وما علم أنه وقع، كلٌّ سواء، وأما بالنسبة لنا صحيح أنَّا نعلم ما سيقع في خبر الصادق، لكن ليس علمنا بذلك كعلمنا به إذا شاهدناه بأعيننا، ولذلك جاء في الحديث الصحيح: (ليس الخبر كالمعاينة).

٢٦. كلام الله تبارك وتعالى متضمن للعلم والصدق والفصاحة والإرادة.

٢٧. وقوله: ﴿نَحْنُ﴾ إذا قال قائل أليس الله واحداً؟

فالجواب: نعم واحد لا شك، لكن لا شك أنه جلَّ وعلا أعظم العظماء، والأسلوب العربي إذا أسند الواحدُ إلى نفسه صيغة الجمع فهو يعني أنه عظيم، ومعلوم أنه لا أحد أعظم من الله تعالى؛ ولهذا تجد الملوك أو الرؤساء إذا أرادوا أن يُصدروا المراسم يقولون: "نحن فلان بن فلان نأمر بكذا وكذا"، إذاً كل ضمائر الجمع المنسوبة إلى الله تعالى المراد بها التعظيم.

٢٨. كلما ازددت عملاً بعلمك زادك الله هدى أي زادك الله علماً.

٢٩. ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾ الجملة هذه مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: "اللام" و"قد" و"القسم الذي دلَّت عليه اللام".

٣٠. ﴿لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ يعني هلاَّ ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على هذه الآلهة، أي: على كونها آلهة وكونهم يعبدونها، فالمطلوب منهم شيئان:

١) أن يثبتوا أن هذه آلهة.

٢) أن يثبتوا أن عبادتَهم لها حق، وكلا الأمرين مستحيل.

٣١. ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ السلطان كلُّ ما للإنسان به سُلطة، قد يكون المراد به الدليل مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ [يونس: ٦٨]، وقد يكون المراد به القوة والغلبة مثل قوله تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]، وقد يكون الحجة والبرهان كما في قوله تعالى: ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي بحجة ظاهرة يكون لهم بها سُلطة.

٣٢. "ال" في الكهف تحتمل أن تكون للعهد، وكأنه كهف ألفوا أن يأووا، إليه أو أن المراد بها الكمال، أي إلى الكهف الكامل الذي يمنعكم من قومكم، أما الأول فيحتاج إلى دليل أن هؤلاء الفتية كانوا يذهبون إلى كهف معين يأوون فيه، وأما الثاني فوجهه أنه إنما يطلبون كهفاً يمنعهم ويحميهم فتكون "ال" لبيان الكمال، أي إلى كهف يمنعكم ويحميكم من عدوكم.

٣٣. ﴿تَقْرِضُهُم﴾ قيل: المعنى تتركهم وقيل: تصيب منهم، وهو الأقرب أنها تصيب منهم، وفائدة هذه الإصابة أن تمنع أجسامَهم من التغيُّر؛ لأن الشمس كما يقول الناس: إنها صحة وفائدة للأجسام.

٣٤. في قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ﴾، ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُم﴾ دليل على أن الشمس هي التي تتحرك، وهي التي بتحركها يكون الطلوع والغروب خلافاً لما يقوله الناس اليوم من أن الذي يدور هو الأرض، وأما الشمس فهي ثابتة، فنحن لدينا شيء من كلام الله، الواجب علينا أن نجريه على ظاهره، وألا نتزحزح عن هذا الظاهر إلاَّ بدليل بَيِّن، فإذا ثبت لدينا بالدليل القاطع أن اختلاف الليل والنهار بسبب دوران الأرض فحينئذ يجب أن نؤول الآيات إلى المعنى المطابق للواقع، فنقول: إذا طلعت في رأي العين وإذا غربت في رأي العين، تزاور في رأي العين، تقرض في رأي العين، أما قبل أن يتبين لنا بالدليل القاطع أن الشمس ثابتة، والأرض هي التي تدور وبدورانها يختلف الليل والنهار، فإننا لا نقبل هذا أبداً، علينا أن نقول: إنَّ الشمس هي التي بدورانها يكون الليل والنهار؛ لأن الله أضاف الأفعال إليها، والنبي ﷺ حينما غربت الشمس قال لأبي ذر: (أتدري أين تذهب؟) فأسند الذَّهاب إليها، ونحن نعلم علم اليقين أن الله تعالى أعلم بخلقه ولا نقبل حدْساً ولا ظناً، ولكن لو تيقنا يقيناً أن الشمس ثابتة في مكانها، وأن الأرض تدور حولها، ويكون الليل والنهار، فحينئذ تأويل الآيات واجب حتى لا يخالف القرآن الشيء المقطوع به.

٣٥. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الضمير يعود على حال هؤلاء الفتية:

١) خروجهم من قومهم.

٢) إيواؤهم لهذا الغار.

٣) تيسير الله لهم غاراً مناسباً.

٣٦. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾، يعني مرة يكونوا على اليمين، ومرة على الشمال، ولم يذكر الله الظهر ولا البطن؛ لأن النوم على اليمين وعلى الشمال هو الأكمل.

٣٧. ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ [الكهف: ٢٠]، أي أنهم لابد أنهم يقتلونكم أو يردونكم على أعقابكم بعد إيمانكم، ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ أي إذا عدتم في ملَّتهم أبداً، وفي هذا دليل على أخذ الحذر من الأعداء بكل وسيلة إلاَّ الوسائل المحرمة؛ فإنها محرمة لا يجوز أن يقع الإنسان فيها.

٣٨. ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً﴾ إلاَّ قولاً مقروناً بمشيئة الله، فقرْنُ ذلك بمشيئة الله يستفيد منه الإنسان فائدتين عظيمتين:

إحداهما: أن الله ييسر الأمر له حيث فوضه إليه جلَّ وعلا.

والثانية: إن لم يفعل لم يحنث.

فيستفاد من قوله: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ﴾ أنه لو قال: سأفعل هذا على سبيل الخبر لا على سبيل الجزم بوقوع الفعل، فإن ذلك لا يلزمه أن يأتي بالمشيئة، يعني لو قال لك صاحبك: "هل تمر عليَّ غداً؟ " فقلت: "نعم" ولم تقل: إن شاء الله فلا بأس؛ لأن هذا خبر عما في نفسكَ، وما كان في نفسك فقد شاءه الله فلا داعي لتعليقه بالمشيئة، أما إن أردت أنه سيقع ولا بد فقل: إن شاء الله، وجه ذلك أن الأول خبر عمَّا في قلبك، والذي في قلبك حاضر الآن، وأما أنك ستفعل في المستقبل فهذا خبر عن شيء لم يكن ولا تدري هل يكون أو لا يكون، انتبهوا لهذا الفرق؛ إذا قال الإنسان: سأسافر غداً، فإن كان

يخبر عمَّا في قلبه فلا يحتاج أن يقول: إن شاء الله، لماذا؟ لأنه خبر عن شيء واقع، أما إذا كان يريد بقوله: سأسافر، أنني سأنشئ السفر وأسافر فعلاً، فهنا لا بد أن يقول: إن شاء الله، ولهذا كانت الآية الكريمة: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً﴾ ولم تكن إني سأفعل، بل قال: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ﴾، فلا تقل لشيء مستقبل إني فاعله إلاَّ أن يكون مقروناً بمشيئة الله.

٣٩. عسى: بمعنى الرجاء إذا وقعت من المخلوق، فإن كانت من الخالق فهي للوقوع.

٤٠. ﴿ثَلاثَ مِائَةٍ﴾ تكتب اصطلاحاً ثلاثمائة مربوطة: ثلاث مربوطة بمائة، وتكتب مائة بالألف، لكن هذه الألف لا يُنطَق بها، وبعضهم يكتب ثلاث وحدها ومئة وحدها، وهذه قاعدة صحيحة.

٤١. قوله: ﴿وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ هذه كقوله تعالى: ﴿إن الحكم إلا لله﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، والحكم كوني وشرعي، فالخلق والتدبير حكم كوني، والحكم بين الناس بالأوامر والنواهي حكم شرعي، وقوله: ﴿وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدا﴾ يشمل النوعين، فلا أحد يشرك الله في حكمه لا الكوني ولا الشرعي، وفيه دليل على وجوب الرجوع إلى حكم الله الشرعي، وأنه ليس لنا أن نُشَرّع في دين الله ما ليس منه، لا في العبادات ولا في المعاملات، وأما من قال: إن لنا أن نُشَرّع في المعاملات ما يناسب الوقت، فهذا قول باطل: لأنه على قولهم لنا أن نجوز الربا ولنا أن نجوز الميسر وأن نجوز كل ما فيه الكسب ولو كان باطلا، فالشرع صالح في كل زمان ومكان ولن يُصلحَ آخر هذه الأمة إلاَّ ما

أصلح أولها، الحكم الكوني لا أحد يُشرك الله فيه ولا أحد يدعي هذا، هل يستطيع أحد أن يُنَزِّل الغيث؟! وهل يستطيع أحد أن يُمسك السموات والأرض أن تزولا؟! ولكن الحكم الشرعي هو محل اختلاف البشر ودعوى بعضهم أن لهم أن يشرعوا للناس ما يرون أنه مناسب.

٤٢. ﴿وَاتْلُ﴾ يشمل التلاوة اللفظية والتلاوة العملية، أمّا التلاوة اللفظية فظاهر، تقول: "فلان تلا علي سورة الفاتحة"، والتلاوة الحكمية العملية أن تعمل بالقرآن، فإذا عملت به فقد تلوتَه أي تَبعتَه، ولهذا نقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: ٢٩] يشمل التلاوة اللفظية والحكمية.

٤٣. اعلم أن الخطاب للرسول ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما دلَّ الدليل على أنه خاص به، فهو خاص به.

الثاني: ما دلَّ الدليل أنه للعموم، فهو للعموم.

الثالث: ما يحتمل الأمرين، فقيل: إنه عام، وقيل: إنه خاص، وتتبعه الأمة لا بمقتضى هذا الخطاب، ولكن بمقتضى أنه أسوتها وقدوتها.

فمثال الأول الذي دلَّ الدليل على أنه خاص به، قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، فهذا لا شك أنه خاص به، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ [الضحى: ٦]، فهو خاص به ﷺ.

ومثال الثاني الذي دلَّ الدليل على أنه عام، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، فقوله: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ للجماعة؛ وهم الأمة، لكن الله سبحانه وتعالى نادى زعيمها ورسولها؛ لأنهم تابعون له فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، إذاً الخطاب يشمل النبي ﷺ وجميع الأمة، ومثال ما يحتمل الأمرين هذه الآية: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾، لكن قد يقول قائل: إن هذه الآية فيها قرينة قد تدل على أنه خاص به كما سنذكره إن شاء الله، ولكن الأمثلة على هذا كثيرة، والصواب أن الخطاب للأمة ولكن وُجِّه لزعيمها وأسوتها؛ لأن الخطابات إنما توجه للرؤساء والمتبوعين.

٤٤. إضافة الرب إلى الرسول ﷺ دليل على أن ما أوحاه الله إلى رسوله من تمام عنايته به.

٤٥. قوله: ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ يعني لا أحد يستطيع أن يبدل كلماته، لا الكونية ولا الشرعية، أما الكونية فواضح، لا أحد يستطيع أن يُبَدِّلها، فإذا قال الله تعالى: ﴿كن﴾ في أمر كوني فلا يستطيع أحد أن يبدله، أما الشرعية فلا أحد يستطيع شرعاً أن يبدلها، والنفي هنا ليس نفياً للوجود، ولكن النفي هنا للإمكان الشرعي، فلا أحد يستطيع شرعاً أن يبدل كلمات الله الشرعية، فالواجب على الجميع أن يستسلموا لله، فلو قال قائل: وجدنا من يبدل كلام الله! فإن الله أشار إلى هذا في قوله في الأعراب، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]. قلنا: هذا تبديل شرعي، والتبديل الشرعي

قد يقع من البشر فيحرفون الكلام عن مواضعه، ويفسرون كلام الله بما لا يريده الله، ومن ذلك جميع المعطِّلة لصفات الله، أو لبعضها ممن بدلوا كلام الله.

٤٦. ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَاتَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾، قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله –: وفي هذه الآية إشارة إلى أهمية حضور القلب عند ذكر الله، وأن الإنسان الذي يذكر الله بلسانه لا بقلبه تنْزَع البركة من أعماله وأوقاته حتى يكون أمره فُرطا عليه، تجده يبقى الساعات الطويلة ولم يحصل شيئاً، ولكن لو كان أمره مع الله لحصلت له البركة في جميع أعماله.

٤٧. ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ والأمر في قوله: ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ للتهديد وليس للإباحة، بل هو للتهديد كما يهدد الإنسان غيره فيقول: "إن كنت صادقاً فافعل كذا"، ويدل عليه قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، يعني من كفر فله النار قد أعدت، وقوله: ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ المراد به الكافرون، والدليل على هذا قوله: ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾، فإن قال قائل: هل الكفر يسمى ظلماً؟

فالجواب: نعم، كما قال الله تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ولا أحد أظلم ممن كفر بالله أو جعل معه شريكاً، وهو الذي خلقه وأمده وأعده.

٤٨. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠]، هذا من أسلوب القرآن، فإن الله إذا ذكر أهل النار ذكر أهل الجنة، وهذا من

معنى قوله: ﴿مَثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، أي تثنى فيه المعاني والأحوال والأوصاف ليكون الإنسان جامعاً بين الخوف والرجاء في سيره إلى ربه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ ولم يقل "إنَّا لا نضيع أجرهم"، ولكن قال تعالى: ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ وذلك لبيان العلة في ثواب هؤلاء، وهو أنهم أحسنوا العمل، و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، هذا من الوجه المعنوي، ومن الوجه اللفظي أن تكون رؤوس الآية متوافقة ومتطابقة؛ لأنه لو قال: "إنَّا لا نضيع أجرهم" لاختلفت رؤوس الآيات.

٤٩. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الأنهار جمع نهر، وهي أربعة أنواع ذكرها الله تعالى في سورة محمد، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وهنا قال: ﴿مِنْ تَحْتِهِمُ﴾، وفي آية أخرى قال: ﴿تحتهم﴾، وفي ثالثة: ﴿من تحتها﴾، وفي رابعة: ﴿تحتها﴾ والمعنى واحد؛ لأنهم إذا كانت الأنهار تجري تحت أشجارها وقصورها فهي تجري تحت سكانها.

٥٠. ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ قال بعضهم: إن ﴿مِنْ﴾ هنا زائدة لقول الله تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الانسان: ٢١]، فـ ﴿من﴾ زائدة، ولكن هذا القول ضعيف، لأن ﴿من﴾ لا تزاد في الإثبات كما قال ابن مالك – رحمه الله – في الألفية:

وزيد في نفي وشبهِهِ فَجَرّ *** نـكرة كما لبـاغٍ من مفر

وعلى هذا فإما أن تكون للتبعيض: أي يحلون فيها بعض أساور، أي يحلى كل واحد منهم شيئاً من هذه الأساور وحينئذٍ لا يكون إشكال، وإما أن تكون "للبيان" أي بيان ما يحلون، وهو أساور وليس قلائد أو خُروصا مثلاً، وأما قوله: ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ فهي بيانية، أي لبيان الأساور أنها من ذهب، ولكن لا تحسبوا أن الذهب الذي في الجنة كالذهب الذي في الدنيا، فإنه يختلف اختلافاً عظيماً، قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، ولو كان كذهب الدنيا لكان العين رأته.

٥١. ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خصَّها باللون الأخضر؛ لأنه أشد ما يكون راحة للعين ففيه جمال وفيه راحة للعين.

٥٢. قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من قوله تبارك وتعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي حال كونهم متكئين فيها، والاتكاء يدل على راحة النفس وعلى الطمأنينة.

٥٣. قوله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ أغلب ما في الجنتين العنب، وأطراف الجنتين النخيل وما بينهما زرع، ففيهما الفاكهة والغذاء من الحب وثمر النخل.

٥٤. قوله: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ افتخر عليه بشيئين:

١) بكثرة المال.

٢) العشيرة والقبيلة.

فافتخر عليه بالغنى والحسب، يقول ذلك افتخاراً وليس تحدثاً بنعمة الله بدليل العقوبة التي حصلت عليه.

٥٥. قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ ذكرت بلفظ الإفراد مع أنه قال: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، فإما أن يقال: إن المراد بالمفرد الجنس، وإما أن يراد إحدى الجنتين، وتكون العظمى هي التي دخلها.

٥٦. ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾ [الكهف: ٣٨]، قوله تعالى: ﴿لَكِنَّا﴾ أصلها "لكن أنا" وحذفت الهمزة تخفيفاً، وأدغمت النون الساكنة الأولى بالنون الثانية المفتوحة فصارت لكنَّا، وتكتب بالألف خطّاً، وأما التلاوة ففيها قراءتان، إحداهما بالألف وصلاً ووقفاً، والثانية بالألف وقفاً وبحذفها وصلاً.

٥٧. وقوله: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فيها وجهان:

١) أنَّ (ما) اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره "هذا ما شاء الله".

٢) أنَّ (ما) شرطية، و(شاء) فعل الشرط، وجوابه محذوف والتقدير "ما شاء الله كان".

٥٨. ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ [الكهف: ٤٠]، قوله تعالى: ﴿فَعَسَى رَبِّي﴾ هذه الجملة هي جواب الشرط. وهل هي للترجي أم للتوقع؟

الجواب: فيها احتمالان:

الأول: أنها للترجي وأن هذا دعا أن يؤتيه الله خيراً من جنته، وأن ينْزل عليها حسباناً من السماء؛ لأنه احتقره واستذله فدعا عليه بمثل ما فعل به من الظلم، ولا حرج على الإنسان أن يَدعوَ على ظالمه بمثل ما ظلمه، ويحتمل أنه دعا عليه من أجل أن يعرف هذا المفتخر ربه ويدعَ الإعجاب بالمال وهذا من مصلحته، فكأنه دعا أن يؤتيه الله ما يستأثر به عليه، وأن يتلف هذه الجنة حتى يعرف هذا الذي افتخر بجنته، وعزة نفره أن الأمر أمر الله، فكأنه دعا عليه بما يضره لمصلحة هي أعظم، فكون الإنسان يعرف نفسه ويرجع إلى ربه خير له من أن يفخر بماله ويعتز به، هذا إذا جعلنا عسى للترجي.

الثاني: أن تكون عسى للتوقع، والمعنى أنك إن كنت ترى هذا فإنه يُتَوقع أن الله تعالى يُزيل عني ما عبتني به ويزيل عنك ما تفتخر به، وأياً كان فالأمر وقع إما استجابة لدعائه وإما تحقيقاً لتوقعه.

٥٩. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾...قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ خصَّ السماء؛ لأن ما جاء من الأرض قد يدافع، يعني لو نفرض أنه جاءت أمطار وسيول جارفة أو نيران محرقة تسعى وتحرق ما أمامها، يمكن أن تُدافع، لكن ما نزل من السماء يصعب دفعه أو يتعذر.

٦٠. ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ هي الأعمال الصالحات من أقوال وأفعال، ومنها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومنها: الصدقات، والصيام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك، هذه الباقيات الصالحات.

٦١. قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي يقال لهم ذلك، وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، وقد، والقسم المقدر، يعني والله لقد جئتمونا ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ليس معكم مال ولا ثياب ولا غير ذلك، بل ما فقد منهم يرد إليهم، كما جاء في الحديث الصحيح أنهم يحشرون يوم القيامة: (حفاة، عراة، غرْلا) و"غُرْلا" جمع أغرل، وهو الذي لم يختن، إذاً سوف يعرضون على الله صفا ويقال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

٦٢. قوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، قال بعضهم: سجود تحية، وليس سجوداً على الجبهة، قالوا ذلك فراراً من كونه سجوداً على الجبهة؛ لأن السجود على الجبهة لا يصح إلا لله، ولكن الذي يجب علينا أن نأخذ الكلام على ظاهره ونقول: الأصل أنه سجود على الجبهة، وإذا كان امتثالاً لأمر الله لم يكن شركاً كما أن قتل النفس بغير حق من كبائر الذنوب، وإذا وقع امتثالاً لأمر الله كان طاعة من الطاعات، فإن إبراهيم الخليل عليه السلام أُمر بذبح ابنه، فامتثل أمر الله وشرع في تنفيذ الذبح، ولا يخفى ما في ذبح الابن من قطيعة الرحم، لكن لما كان هذا امتثالاً لأمر الله عز وجل صار طاعة، ولما تحقق مراد الله تعالى من الابتلاء نسخ الأمر ورفع الحرج، إذاً فالسجود لآدم لولا أمر الله لكان شركاً، لكن لما كان بأمر الله كان طاعة لله.

وآدم: هو أبو البشر خلقه الله عز وجل من طين وخلقه بيده، قال أهل العلم لم يخلق الله شيئاً بيده إلا آدم وجنة عدن، فإنه خلقها بيده وكتب التوراة بيده جل وعلا، فهذه ثلاثة أشياء كلها كانت بيد الله، أما غيرُ آدم فيخلق بالكلمة (كن) فيكون، وهو نبي،

وليس برسول؛ لأن أول رسول أرسل إلى البشرية هو نوح عليه السلام، أرسله الله لما اختلف الناس: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، أي كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فكان أول رسول نوحٌ عليه السلام وآدم نبي مُكلَّم، فإذا قال قائل كيف يكون نبياً ولا يكون رسولاً؟

الجواب: يكون نبياً ولا يكون رسولاً؛ لأنه لم يكن هناك داع إلى الرسالة، فالناس كانوا على ملة واحدة والبشر لم ينتشروا بعد كثيراً ولم يفتتنوا في الدنيا كثيراً، نفر قليل، فكانوا يستنون بأبيهم ويعملون عمله، ولما انتشرت الأمة وكثرت واختلفوا أرسل الله الرسل.

٦٣. فإذا قال قائل: إن ظاهر القرآن أن إبليس كان من الملائكة؟

فالجواب: لا، ليس ظاهر القرآن؛ لأنه قال: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ ثم ذكر أنه ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، نعم القرآن يدل على أن الأمر توجه إلى إبليس كما قد توجه إلى الملائكة، ولكن لماذا؟

قال العلماء: إنه كان – أي: إبليس – يأتي إلى الملائكة ويجتمع إليهم فوجه الخطاب إلى هذا المجتمع من الملائكة الذين خُلقوا من النور، ومن الشيطان الذي خُلق من النار، فرجع الملائكة إلى أصلهم، والشيطان إلى أصله، وهو الاستكبار والإباء والمجادلة بالباطل؛ لأنه أبى واستكبر وجادل، ماذا قال لله؟ ﴿قال أنا خيرٌ منه﴾ [الأعراف: ١٢]، فكيف تأمرني أن أسجد لواحد أنا خير منه؟ ثم علل بعلة هي عليه قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وهذا عليه فإن المخلوق من الطين أحسن من المخلوق من النار، المخلوق من النار، خلق من نار محرقة ملتهبة فيها علامة الطيش تجد اللهب فيها يروح يميناً وشمالاً، ما لها قاعدة مستقرة، ولقد ذكر ابن القيم في كتابه "إغاثة اللهفان" فروقاً كثيرة بين الطين وبين النار، ثم على فرض أنه خلق من النار وكان خيراً من آدم أليس الأجدر به أن يمتثل أمر الخالق؟ بلى، لكنه أبى واستكبر.

٦٤. قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني أن هؤلاء الذين اتخذهم الناس أولياء من دون الله ليس لهم حق الكون وبالتدبير، فالله ﷻ ما أشهدهم خلق السموات والأرض؛ لأن السموات والأرض مخلوقتان قبل الشياطين.

﴿وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني ما أشهدت بعضَهم خلق بعض، فكيف تتخذونهم أولياء وهم لا شاركوا في الخلق ولا خلقوا شيئاً بل ولا شاهدوه، وفي هذه الجملة دليل على أن كل من تكلم في شيء من أمر السموات والأرض، بدون دليل شرعي أو حسي فإنه لا يُقبل قوله، فلو قال: إن السموات تكونت من كذا، والأرضُ تكونت من كذا، وبعضهم يقول: الأرض قطعة من الشمس وما أشبه ذلك من الكلام الذي لا دليل على صحته.

فإننا نقول له: إن الله ما أشهدك خلق السموات والأرض، ولن نقبل منك أيَّ شيء من هذا، إلاَّ إذا وجدنا دليلاً حسياً لا مناص لنا منه، حينئذٍ نأخذ به؛ لأن القرآن لا يعارض الأشياء المحسوسة.

٦٥. ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ الضمير في ﴿كُنْتُ﴾ يعود إلى الله.

﴿كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ أي: أنصاراً ينصرون ديني، لماذا؟ لأن المضل يصرف الناس عن الدين، فكيف يتخذ الله المضلين عضداً، وهو إشارة إلى أنه لا ينبغي لك أيها الإنسان أن تتخذ المضلين عضداً تنتصر بهم؛ لأنهم لن ينفعوك بل سيضرونك، إذاً لا تعتمد على السفهاء ولا تعتمد على أهل الأهواء المنحرفة؛ لأنه لا يمكن أن ينفعوك بل هم يضرونك، فإذا كان الله لم يتخذ المضلين عضداً فنحن كذلك لا يليق بنا أن نتخذ المضلين عضداً؛ لأنهم لا خير فيهم، وفي هذا النهي عن بطانة السوء وعن مرافقة أهل السوء، وأن يحذر الإنسان من جلساء السوء.

٦٦. ﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية تمنعهم من ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أن يفقهوا القرآن فلا يفهمونه، وفي هذا الحث على فقه القرآن، وأنه ينبغي للإنسان أن يقرأ القرآن ويتعلم معناه، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل.

٦٧. قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي: قرى الأمم السابقين، قد يقول قائل هنا إشكال: فإن القرى جماد، والجماد لا يعود عليه الضمير بصيغة الجمع، يعني أنك لا تقول مثلاً: "هذه البيوت عمرناهم" ولكن تقول: "هذه البيوت عمرناها"، فلماذا قال: "أهلكناهم"؟

فالجواب: قال هذا؛ لأن الذي يهلك هم أهل القرى، وفي هذا دليل واضح على أن القرى قد يراد بها أهلها، وقد يراد بها البناء المجتمع، فالقرية أو القرى تارة يراد بها أهلها وتارة يراد بها المساكن المجتمعة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ

فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، فالمراد بالقرى هنا أهلها، وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١]، والمراد بالقرية هنا المساكن المجتمعة.

٦٨. ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ قيل: إنه مكان الله أعلم به، لكن موسى يعلم، وقيل: إنه ملتقى البحر الأحمر مع البحر الأبيض، وكان فيما سبق بينهما أرض، حتى فتحت القناة وهذا ليس ببعيد، وسبب ذلك أن الله أوحى إليه أن عبداً في مجمع البحرين أعلم منك.

٦٩. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أضاف الفعل إليهما مع أن الناسي هو الفتى وليس موسى، ولكن القوم إذا كانوا في شأن واحد وفي عمل واحد، نسب فعل الواحد منهم أو القائل منهم إلى الجميع، ولهذا يخاطب الله ﷻ بني إسرائيل في عهد الرسول ﷺ فيقول:﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[البقرة: ٥٠]،﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[البقرة: الآية٥٥]، مع أنهم ما قالوا هذا؛ لكن قاله أجدادهم.

٧٠. قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أي قال موسى للخضر: هل أتبعك، وهذا عرض لطيف وتواضع، وتأمّل هذا الأدب من موسى عليه السلام مع أن موسى أفضل منه وكان عند الله وجيهاً، ومع ذلك يتلطف معه؛ لأنه سوف يأخذ منه علماً لا يعلمه موسى، وفي هذا دليل أنَّ على طالب العلم أن يتلطف مع شيخه ومع أُستاذه وأن يُعامله بالإكرام.

٧١. ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ ولا شك أن الخضر سيفرح بمن يأخذ عنه العلم، وكل إنسان أعطاه الله علماً ينبغي أن يفرح أن يؤخذ منه هذا العلم؛ لأن العلم الذي يُؤخذ من الإنسان في حياته ينتفع به بعد وفاته، كما جاء في الحديث الصحيح: (إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِية، أَوَ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ).

٧٢. قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هو كقول إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام لما قال له أبوه: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وموسى قال للخضر: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، وأيضاً أصبر على ما تفعل وامتثل ما به تأمر ﴿وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾، وعده بشيئين:

١) الصبر على ما يفعل.

٢) الائتمار بما يأمر، والانتهاء عما ينهى.

٧٣. ﴿أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ أي: إلى أن أذكر لك السبب، وهذا توجيه من معلم لمن يتعلم منه، ألاَّ يتعجل في الرد على معلمه، بل ينتظر حتى يحدث له بذلك ذكراً، وهذا من آداب المتعلم ألاَّ يتعجل في الرد حتى يتبين الأمر.

٧٤. قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾، والجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات:

١) اللام.

٢) قد.

٣) القسم المقدر الذي تدل عليه اللام، والإمر بكسر الهمزة الشيء العظيم، ومنه قول أبي سفيان لهرقل لما سأله عن الرسول ﷺ وبين له حاله وصفاته وما كان من أخلاقه، فلما انصرف مع قومه، قال أبو سفيان: "لقد أمِرَ أمرُ ابن أبي كَبْشَة إنه ليخافه مَلِكُ بني الأصفر" ، يعني بابن أبي كبشة الرسول ﷺ، و: "أمِرَ أمرُه" يعني عَظُم أمره.

٧٥. ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً﴾ وفي قراءة "زاكية"؛ لأنه غلام صغير، والغلام الصغير تكتب له الحسنات، ولا تكتب عليه السيئات، إذاً فهو زكي؛ لأنه صغير ولا تكتب عليه السيئات.

٧٦. ﴿لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ فيها قراءتان: ﴿لاَّ يَكَادُونَ يُفْقِهُونَ قَوْلاً﴾ و﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾، والفرق بينهما ظاهر: لا ﴿يَفْقَهُونَ﴾ يعني هم، لا "يُفْقِهُونَ" أي: غيرهم، يعني هم لا يعرفون لغة الناس، والناس لا يعرفون لغتهم، هذه فائدة القراءتين، وكلتاهما صحيحة، وكل واحدة تحمل معنىً غير معنى القراءة الأخرى، لكن بازدواجهما نعرف أن هؤلاء القوم لا يعرفون لغة الناس، والناس لا يعرفون لغتهم.

٧٧. قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ وحينئذٍ يقع إشكال كيف يكونوا ﴿لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ ثم ينقل عنهم أنهم خاطبوا ذا القرنين بخطاب واضح فصيح: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾؟ والجواب عن هذا سهل جداً، وهو أن ذا القرنين أعطاه الله تعالى ملكاً عظيماً، وعنده من المترجمين ما يُعرف به ما يريد، وما يَعرف به ما يريد غيره، على أنه

قد يكون الله ﷻ قد ألهمه لغة الناس الذين استولى عليهم كلِّهم، المهم أنهم خاطبوا ذا القرنين بخطاب واضح ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾، نادَوه بلقبه تعظيماً له.

٧٨. ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يأجوج ومأجوج هاتان قبيلتان من بني آدم كما صح ذلك عن النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ لما حدَّث الصحابة بأن الله ﷻ يأمر آدم يوم القيامة فيقول:

(يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِير، وَتَضَعُ كُلّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيد)، فاشتد ذلك عليهم، قالوا: يا رسول الله، وأيُّنا ذلك الواحد؟ قال: (أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُم رَجُلٌ وَمِنْ يَأْجُوج ومَأْجُوج أَلْفٌ)، ثم قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ ...) إلخ الحديث.

وبهذا نعرف خطأ من قال: إنهم ليسوا على شكل الآدميين وأن بعضهم في غاية ما يكون من القِصَر، وبعضهم في غاية ما يكون من الطول، وأن بعضهم له أذن يفترشها، وأذن يلتحف بها وما أشبه ذلك، كل هذا من خرافات بني إسرائيل، ولا يجوز أن نصدقه، بل يقال: إنهم من بني آدم، لكن قد يختلفون كما يختلف الناس في البيئات، فتجد أهل خط الاستواء بيئتهم غير بيئة الشماليين، فكل له بيئة، الشرقيون الآن يختلفون عن أهل وسط الكرة الأرضية، فهذا ربما يختلفون فيه، أما أن يختلفوا اختلافاً فادحاً كما يذكر، فهذا ليس بصحيح.

٧٩. قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ و"ما استطاعوا" معناهما واحد.

٨٠. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ فما هو هذا الوعد؟

الجواب: الوعد هو أن الله سبحانه وتعالى يخرجهم في آخر الزمان، وذلك بعد خروج الدجال وقتله يخرج الله هؤلاء، يخرجهم في عالم كثير مثل الجراد أو أكثر (فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُون: لَقَدْ كَانَ بِهَذِ مَرَّةً مَاءٌ) ثم (يُحصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ) في جبل الطور، ويلحقهم مشقة ويرغبون إلى الله تعالى في هلاك هؤلاء، (فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) يصبحون في ليلة واحدة على كثرتهم، ميتين مِيتة رجل واحد، حتى تنتن الأرض من رائحتهم، فيرسل الله تعالى أمطاراً حملهم إلى البحر أو يرسل اللهُ طيوراً فَتَحْمِلُهُمْ إلى البحر، والله على كل شيء قدير، وهذه الأشياء نؤمن بها كما أخبر بها النبي ﷺ، أما كيف تصل الحال إلى ذلك، فهذا أمره إلى الله ﷻ.

٨١. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ النافخ إسرافيل أحد الملائكة الكرام، وكان النبي ﷺ يفتتح صلاة الليل بهذا الاستفتاح: (اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم)، هؤلاء الثلاثة الملائكة الكرام، كل واحد منهم موكل بما فيه الحياة، جبريل موكل بما فيه حياة القلوب، ميكائيل بما فيه حياة النبات وهو القَطْر، والثالث إسرافيل بما فيه حياة الناس عند البعث.

٨٢. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ يعني أن الله هيأ النار ﴿نُزُلاً﴾ للكافرين، ومعنى النُّزُل ما يقدمه صاحب البيت للضيف، ويحتمل أن يكون بمعنى المنْزِل، وكلاهما صحيح، فهم نازلون فيها، وهم يعطونها كأنها ضيافة، وبئست الضيافة.

٨٣. قد بين الله تعالى في سورة العصر أن كل إنسان خاسر، إلاَّ من اتصف بأربع صفات:

١) الذين آمنوا.

٢) وعملوا الصالحات.

٣) وتواصوا بالحق.

٤) وتواصوا بالصبر.

٨٤. الدليل على إمكان البعث، وإحياء العظام وهي رميم:

١) أن الله تعالى ابتدأها، ولما قال زكريا حين بُشِّر بالولد وكان قد بلغ في الكِبَر عتيا، إن امرأته عاقر، قال الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ [مريم: ٩]، فالذي خلقك من قبل، وأنت لم تكن شيئاً قادر على أن يجعل لك ولداً.

٢) ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] وإذا كان الله بكل خلق عليماً، فإنه لن يتعذر عليه أن يخلق ما يشاء، من الذي يمنعه إذا كان عليماً بكل خلق؟

الجواب: لا أحد يمنعه.

٣) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠] شجر أخضر يخرج منه نار، فالشجر الأخضر يضرب بالزند ثم ينقدح ناراً، وكان العرب يعرفون هذا، فالذي يخرج هذه النار، وهي حارة يابسة من غصن رطب بارد، يعني متضادان غاية التضاد، قادر على أن يخلق الإنسان، أو أن يعيد خلق العظام وهي رميم، ثم حقق هذه النار بقوله: ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

٤) ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]

الجواب: بلى، قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، فالذي خلق السموات والأرض بكبرها وعظمها، قادر على أن يعيد جزءاً من لا شيء بالنسبة للأرض، من أنت يا ابن آدم بالنسبة للأرض؟ لا شيء، أنت خلقت منها، أنت بعض يسير منها، فالذي قدر على خلق السموات والأرض، قادر على أن يخلق مثلهم، قال الله تعالى مجيباً نفسه: ﴿بَلَى﴾ [يس: ٨١].

٥) ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١] الخلَّاق صيغة مبالغة، وإن شئت فاجعلها نسبة، يعني أنه موصوف بالخلق أزلاً وأبداً، وهو تأكيد لقوله قبل: ﴿وهو بكل خلق عليم﴾ [يس: ٧٩].

٦) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] لا يحتاج إلى عمال ولا بنَّائين ولا أحد، ﴿كن فيكون﴾؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣] كلمة واحدة.

٧) ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يّس: ٨٣]، كل شيء فبيده ملكوته ﷻ يتصرف كما يشاء، فنسأله ﷻ أن يهدينا صراطه المستقيم.

٨) ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] فهذا هو الدليل الثامن، وإنما كان دليلاً؛ لأنه لولا رجوعنا إلى الله ﷻ لكان وجودنا عبثاً، وهذا ينافي الحكمة، فتأمل سياق هذه الأدلة الثمانية في هذا القول الموجز، ومع ذلك ينكرون لقاء الله.

٨٥. ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ قوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ هل المراد بالكينونة هنا الكينونة الماضية، أو المراد تحقيق كونها نزلاً لهم؟ كقوله تعالى: ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾؟ نقول: الأمران واقعان، فكانت في علم الله نزلاً لهم، وكانت نزلاً لهم على وجه التحقيق؛ لأن "كان" قد يسلب منها معنى الزمان، ويكون المراد بها التحقيق.

٧. القواعد والكليات

١. الأصل أن السُّور المكيَّة مكيَّةٌ كلها، وأن المدنيَّة مدنيَّةٌ كُلُّها، فإذا رأيت استثناءً فلا بد من دليل.

٢. التخلية قبل التحلية، يعني قبل أن تُحلِّي الشيء أخلِ المكان عمَّا ينافي التحلي ثم حَلِّه.

٣. الشرائع بعد بِعثة الرسول ﷺ كلها منسوخة بشريعته ﷺ.

٤. قال – رحمه الله –: فانتبهوا للقاعدة في مذهب أهل السنّة والجماعة: أن الجنَّة والنار مخلوقتان الآن؛ لأن الله ذكر في الجنة ﴿أعدت﴾، وفي النار ﴿أعدت﴾.

٥. التعليق بالشرط لا يدل على إمكان المشروط، بل قد يكون مستحيلاً غاية الاستحالة.

٦. العبرة بالأحسن لا بالأكثر.

٧. كل ضمائر الجمع المنسوبة إلى الله تعالى المراد بها التعظيم.

٨. الاستفهام إذا ضُمِّن معنى النفي صار فيه زيادة فائدة، وهي أنه يكون مُشْرَباً معنى التحدي؛ لأن النفي المجرد لا يدل على التحدي.

لو قلت: "ما قام زيد"، ما فيه تحدي، لكن لو قلت: ﴿من أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ فهذا تحدي، كأنك تقول: أخبرني أو أوجد لي أحداً أظلم ممن افترى على الله كذباً.

٩. من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

١٠. ما لا فائدة للجدال فيه، لا ينبغي للإنسان أن يتعب قلبه في الجدال به.

١١. ما لا خير فيه، فلا ينبغي التعمق فيه.

٨. مواعظ

١. قال العلامة ابن عثيمين – رحمه الله –: " .. الدنيا كلها قاضية منتهية طالت بك أم قصرت، ولا بد لكل إنسان من أحد أمرين: إما الهَرَم وإما الموت، ونهاية الهرم الموت أيضاً؛ ولهذا يقول الشاعر:

لا طِيب للعيش ما دامت مُنغَّصةً *** لـذَّاتُـه بادِّكـار المـوت والهـــرم

الإنسان كلما تذكر أنه سيموت طالت حياته أم قصرت فإنه لا يطيب العيش له، ولكن من نعمة الله أن الناس ينسَون هذا الأمر، ولكنَّ هؤلاء الناسين منهم من ينسى هذا الأمر باشتغاله بطاعة الله، ومنهم من ينساه بانشغاله بالدنيا".

٢. ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾ أي من يتولاه ويرشده إلى الصواب، وفي هذا الخبر من الله تنبيه إلى أننا لا نسألُ الهداية إلاَّ من الله، وأننا لا نجزع إذا رأينا من هو ضال؛ لأن الإضلال بيد الله، فنحن نؤمن بالقدر ولا نَسخطُ الإضلال الواقع من الله لكن يجب علينا أن نُرشد هؤلاء الضالين، فهنا شرع وقدَر، القدر يجب عليك أن ترضى به على كل حال، والمقدور فيه تفصيل، والمشروع يجب أن ترضى به على كل حال، فنحن نرضى أن الله جعل الناس على قسمين مهتد وضال، ولكن يجب علينا مع ذلك أن نسعى في هداية الخلق.

٣. قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهو المطر ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ يعني أن الرِّياض صارت مختلطة بأنواع النبات المتنوع بأزهاره وأوراقه وأشجاره كما يشاهد في وقت الربيع كيف تكون الأرض، سبحان الله، كأنه وَشْيٌ من أحسن الوشْيات، إذا اختلط من كل نوع ومن كل جنس، ﴿فَأَصْبَحَ﴾ يعني هذا النبات المختلف المتنوع، ﴿هَشِيماً﴾ هامداً، ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أي تحمله، فهذا هو ﴿مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

الآن الدنيا تزدهر للإنسان وتزهو له وإذا بها تخمد بموته أو فَقدها، لا بد من هذا، إما أن يموت الإنسان أو أن يفقد الدنيا، هذا مثل موافق تماماً، وقد ضرب الله تعالى هذا النوع من الأمثال في عدة سور من القرآن الكريم حتى لا نغتر بالدنيا ولا نتمسك بها، والعجب أننا مغترون بها ومتمسكون بها مع أن أكدارها وهمومها وغمومها أكثر بكثير من صفوها وراحتها والشاعر الذي قال:

فيـــوم علـــينا ويـــوم لـــــنا *** ويـــوم نُـساءُ ويـــــومٌ نُـــسَرْ

لا يريد، كما يظهر لنا، المعادلة، لكن معناه أنه ما من سرور إلاَّ ومعه مساءة، وما من مساءة إلاَّ ومعها سرور، لكن صفوها أقل بكثير من أكدارها، حتى المنعمون بها ليسوا مطمئنين بها كما قال الشاعر الآخر:

لا طِيب للعيش ما دامت مُنغَّصةً *** لـذَّاتُـه بادِّكـار المـوت والهـــرم

قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ ما وجد فهو قادر على إعدامه، وما عُدِم فهو قادر على إيجاده، وليس بين الإيجاد والعدم إلاَّ كلمة ﴿كن﴾، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وفي قوله: ﴿مُقْتَدِراً﴾ مبالغة في القدرة، ثم قال الله ﷻ مقارناً بين ما يبقى وما لا يبقى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٦]، قوله تعالى: ﴿الْمَالُ﴾ من أي نوع سواء كان من العروض أو النقود أو الآدميين أو البهائم.

﴿وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولا ينفع الإنسان في الآخرة إلاَّ ما قدَّم منها، وذكر البنين دون البنات؛ لأنه جرت العادة أنهم لا يفتخرون إلاَّ بالبنين، والبنات في الجاهلية مهينات بأعظم المهانة كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، أي صار وجهه مسوداً وقلبه ممتلئاً غيظاً، ﴿يتوارى من القوم﴾ يعني يختبئ منهم ﴿من سوء ما بشر به﴾، ثم يُقَدِّرُ في نفسه ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩]، بقي قسم ثالث وهو أن يُمسِكَهُ على عِزٍّ وهذا عندهم غير ممكن، ليس عندهم إلاَّ أحد أمرين:

١) إما أن يمسكه على هون.

٢) ﴿يَدُسه في التراب﴾، أي يدفنه فيه وهذا هو الوأد، قال الله تعالى: ﴿أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي أن الإنسان يتجمل به يعني يتجمل أنَّ عنده أولاداً، قدر نفسك أنك صاحب قِرى يعني أنك مضياف وعندك شباب، عشرة، يستقبلون الضيوف، تجد أن هذا في غاية ما يكون من السرور، هذه من الزينة، كذلك قدر نفسك أنك تسير على فرس وحولك هؤلاء الشباب يَحُفُّونك من اليمين ومن الشمال ومن الخلف ومن الأمام، تجد شيئاً عظيماً من الزينة، ولكن هناك شيء خير من ذلك.

٤. قوله: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ الكونية والشرعية؛ الكونية أن يقال له: إن كسوف الشمس والقمر يخوف الله بهما عباده، فيعرض عنها ويقول: أبداً خسوف القمر طبيعي، وكسوف الشمس طبيعي، ولا إنذار ولا نذير، وهذا إعراض، أما الآيات الشرعية فكثير من يذكر بآيات الله ويعرض عنها.

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يعني نسي ما قدمت يداه من الكفر والمعاصي والاستكبار وغير ذلك مما يمنعه عن قبول الحق؛ لأن الإنسان والعياذ بالله كلما أوغل في المعاصي، ازداد بعداً عن الإقبال على الحق كما قال الله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. ولذلك يجب أن يُعلم أن من أشد عقوبات الذنوب أن يعاقب الإنسان بمرض القلب والعياذ بالله، فالإنسان إذا عوقب بهلاك حبيب أو فقد محبوب من المال، فهذه عقوبة لا شك، لكن إذا عوقب بانسلاخ القلب فهذه العقوبة أشد ما يكون، يقول ابن القيم:

والله ما خوفي الذنوب فإنها *** لعلى طريق العفو والغفران

وإنما أخشى انسلاخ القلب من *** تحكيم هذا الوحي والقرآن

هذا هو الذي يخشاه الإنسان العاقل، أما المصائب الأخرى فهي كفارات وربما تزيد العبد إيماناً.

٥. قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ قالها ذو القرنين وانظر إلى عباد الله الصالحين، كيف لا يسندون ما يعملونه إلى أنفسهم، ولكنهم يسندونه إلى الله عز وجل وإلى فضله، ولهذا لما قالت النملة حين أقبل سليمان بجنوده على وادي النمل، قامت خطيبة فصيحة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يشعرون * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٨-١٩]، أيضاً ذو القرنين – رحمه الله – قال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ وليس بحولي ولا قوتي، ولكنه رحمة به ورحمة بالذين طلبوا منه السد، أن حصل هذا الردم المنيع.

٦. وقوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً﴾، قوله ﴿عَرَضْنَا﴾ يعني عرضاً عظيماً، ولذلك نُكِّر يعني عرضاً عظيماً تتساقط منه القلوب، ومن الحكم في إخبار الله ﷻ بذلك أن يصلح الإنسان ما بينه وبين الله، وأن يخاف من هذا اليوم، وأن يستعد له، وأن يصور نفسه وكأنه تحت قدميه، كما قال الصِّديق رضي الله عنه:

كلنا مصبَّح في أهله *** والموت أدنى من شراك نعله

فتصور هذا وتصور أنه ليس بينك وبينه، إلاَّ أن تخرج هذه الروح من الجسد، وحينئذ ينتهي كل شيء.

كتبه/ عبدالحكيم بن عبدالله رباع الشحي

الأحد ٢١ من رجـــــب ١٤٣٦ هـ

١٠-٥-٢٠١٥ م

الفهرس

المقدمة..... ٤

١. ما جاء في نزولها..... ٦

٢. فوائد عقدية..... ٧

٣. فوائد فقهية..... ١٥

٤. مسائل واختيارات مهمة..... ٢١

٥. التعريفات..... ٢٨

٦. الفوائد الجامعة..... ٢٩

٧. القواعد والكليات..... ٦٠

٨. مواعظ..... ٦٢